الأهرام

مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: المصور

التاريخ: ١٩٧٥/١١/٢٨

المسيرة الطويلة
من
الهزيمة إلى النصر

بقلم: صبرى أبو المجد

خمس سنوات مع "السادات"
الرجل الذى أحال هزائمنا إلى انتصارات

سيادة القانون

فى مقدمة ماتعتز به مصر وتفخر ان فيها من بنيها قضاة آمنوا بربهم الحق العدل وطبقوا بكل مايملكون من جهد وايمان وصدق قوله تعالى : « واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » واذا كان قضاؤنا - ولا يزال - موضع اعتزاز شعبنا وفخاره فانه فى نفس الوقت كان ولايزال موضع حبه واحترامه وثقته .. لم يعرف قضاؤنا عبر تاريخه الطويل شعب مصر كشيع او احزاب او هيئات او طبقات ، او حاكمين او محكومين وانما عرفه كمصريين فقط يقيم بينهم العدل ويرفع لديهم منارة الحق والانصاف والمساواة . وفى احلك الظروف التى مرت بمصر ، وعندما كان البعض يعتقد ان كل شىء قد انتهى وان دولة الظلم ستمتد الى قيام الساعة ، عندماكانت الاحداث المؤلمة

تتوالى والمصائب المدلهمة تتتابع والخير يصبح الاستثناء والشر يصبح القاعدة كانت اعين شعبنا ترنو الى محراب العدل والى رجال العدل باعتبارهم الملجأ الامين والمنار الهادى والنور الذى يضىء الطريق ، ويفتح ابواب الامل بل باعتباره اليد القوية التى تصفع كل عات مستبد ، توقفه عند حده ان لم تهد بنيانه وكيانه وتساهم بجهد كبير فى القضاء على دولته وزوال جاهه وصولجانه ، عندما كان ـ مثلا ـ كرومر ملك مصر غير المتوج ، الآمر الناهى فى كل صغيرة وكبيرة من امور البلاد لايجرؤ صاحب السلطة الشرعية ان ينقض له امرا ولا يستطيع الكبراء والوزراء الا ان ينحنوا لجبروته وديكتاتوريته . كان قضاة مصر يصفعونه دائما باحكامهم العادلة الجريئة لايخشون تهديده او وعيده ولا يفكرون فى مناصبهم او فى مستقبل اولادهم وانما يقولون دائما كلمة الحق عالية مدوية . كانوا جميعا على النحو الذى وصف به ابراهيم الهلباوى زميله قاسم امين عندما قال فيه . كان قاسم المثل الاعلى لما يجب ان يكون عليه القاضى المصرى علما ودراسة وسموا وجلالا ، كانت اعصابه تقطر رقة وحساسية ، كله دماثة وكله رقة وحاشـــــية ومع ذلك فانه كان يستشرى كالاسد كلما وقف فى وجه العدالة عائق او اكتنفها شبهة او وجه اليها افتراء »

فى قضية مقتل بطرس غالى جند الاحتلال البريطانى فى مصر كل قواه الســـياسية والعسكرية لضرب الحركة الوطنيـة المصرية وقدم مجموعة من خيرة شباب مصر الى المحاكمة بغية التخلص منهم ومن التيار الوطنى الذى يمثلونه ، وتعرض قاضى الاحالة متولى غنيم ـ يرحمه الله ـ لضغوط عديدة ليقدم هؤلاء الى محـكمة الجنايات ولكن القاضى العـادل ـ كما اطلقوا عليه يومئذ ـ لم يتاثر باية ضغوط مضحيا بوظيفته ومستقبله ولم يحكم الا ضميره فبرأ هؤلاء الشـــبان فيما عدا ابراهيم الوردانى الذى اعترف بانه وحده قاتل بطرس غالى لاسباب سياسية محضة

وكان يوم الحكم بتبرئة هؤلاء الشبان من اعيادنا الوطنية التى لاتزال خالدة فى وجداننا المصرى الوطنى . وعندما تآمر الاحتلال البريطانى بالتحالف مع السراى على ضرب الحركة الوطنية المصرية ـ بعد التخلص من وزارة سعد زغلول المؤيدة من الشعب وقدم احمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وحسن كامل الشيشينى وعبد الحليم البيلى واحمد جاد الله وغيرهم من قيادات الشباب الوطنى الى محكمة الجنايات التى كان يراسها مستر كبرشو وكان كامل ابراهيم وعلى عرب مستشارين بها ، توالت الضغوط السياسية على هيئة المحكمة حتى يكون قرارها متفقا مع الاهداف الاستعمارية غير ان عضوى المحكمة لم يتاثرا بتلك الضغوط وكان قرارهما بتبرئة احمد ماهر ، والنقراشى والشيشينى واحمد جاد الله ـ الزعيم العمالى المعروف وقتئذ ـ ويستقيل رئيس المحكمة معترضا على احكام البراءة ثم يتجه فور استقالته ـ التى لم يعرف القضاء لها مثيلا من قبل ـ الى دار المندوب السامى البريطانى وكان لحكم البراءة اثره الكبير فى تدعيم القضاء المصرى فى معركته ضد الاحتلال البريطانى ، وعندما تولى اسماعيل صدقى رئاسة الوزارة لاول مرة عام ١٩٣٠ والغى الدستور وحكم الشعب بالحديد والنار كان قضاة مصر فى مقدمة القوى الوطنية التى وقفت ضد ذلك العهد الديكتاتورى الاسود فبرات احدى المحاكم فى ٥ يناير ١٩٣٢ توفيق دياب وعزيز ميرهم وكانا قد قدما الى المحاكمة بتهمة الاساءة الى حكومة اسماعيل صدقى ، وفى قضية البدارى والحصاينة وغيرهما وصفت محكمة النقض والابرام ـ اكبر هيئة قضائية فى مصر وكان رئيسها عبد العزيز فهمى وصفت حكم اسماعيل صدقى بانه «اجرام فى اجرام»

ولعل فى مقدمة مايعتز به شعب مصر ، ويفتخر ان الكثيرين من قضاته قد لعبوا اخطر الادوار فى تاريخ مصر السياسى وان اخطر الاسماء التى اشتركت فى قيادة الحركة الوطنية كانت من نجوم القضاء :

محمد فريد ، سعد زغلول ، عبد الخالق ثروت ، عبد العزيز فهمي ، على ماهر ، مصطفى النحاس ، محمد زكي على وغيرهم ، وغيرهم ممن احتلوا صفحات نيرة من سجل تاريخنا الوطني ، وفي الوقت ذاته فان في مقدمة مايعتز به شعبنا ويفتخر ايضا ان بعض ابنائه الذين اتهموا في قضايا وطنية كبرى قد لعبوا اخطر الادوار في تاريخنا القومي ، وفي مقدمتهم الرئيس محمد انور السادات . وتحضرني بهذه المناسبة ، كلمة قيلت منذ اربعين عاما قالها صبري ابوعلم يرحمه الله ، وهو يتحدث عن محكمة جنايات مصر ، واقترانها بتاريخ مصر السياسي والاجتماعي وتحول ساحتها الى مرصد ترصد فيه هزات العالم السياسي واحداث مصر الكبرى وكيف كانت قاعتها منبرا تنقل اليه ثورة الشارع المصري بكل مافيها من المعاني .. معاني الحياة المتدفقة المتدافقة .. وعن قفص الاتهام في محكمة جنايات مصر يقول صبري ابوعلم : في هذا القفص توالى وقوف شخصيات لها خطرها في كل مسالك الحياة .. هناك من خلف اعواد الحديد المدببة كالسهام اطلت رءوس قادة الراى العام كتابا وساسة وزعماء ليتلقوا ضربات الاتهام .. في هذا القفص وقف رجال كانت قضاياهم جزءا من تاريخ مصر الحديث وكانت الاحكام التي صدرت فيها نقطة التحول في مجرى الاحداث .. وقفوا وقد سلطت عليهم شهوات الخصومة نارها لإتزحم وسد عليهم الاتهام منافذ الخلاص . لقد كان لكل حادث في اركان تلك المحكمة صدى وعلى جدرانها ظلا .. توالت عليها صور الحوادث والوانها دنست فيها مواكب الحياة الاقتصادية والسياسية »

ولعل اخطر ما مر بتلك القاعة التاريخية من احداث لقاء الرئيس انور السادات برجال القضاء في تلك القاعة التي شهدت منذ سبعة وعشرين عاما انور السادات متهما في قضية الاغتيالات السياسية .. ان التاريخ لم يذكر حدثا كذلك الذي وقع في يوم الاربعاء

الماضى عندما يتوجه قائد الشعب الى تلك القاعة التاريخية ليخاطب رجال القضاء ، كما لم يخاطبهم اى حاكم من قبل .. ولعلى لا اتهم بالمبالغة اذا ماقلت ان تلك الكلمة التى القاها الرئيس محمد انور السادات فى رجال القضاء تعتبر من اخطر ما القى من كلمات سياسية فى السنوات الاخيرة .. لقد حرص الرئيس انور السادات على ان يعطى رجال القضاء حقهم من التكريم ، كما حرص فى الوقت ذاته على أن يرسى بصراحة ووضوح القواعد الرئيسية لذلك البناء الشامخ الذى اقامه منذ خمس سنوات ونعنى به « سيادة القانون » وكرجل كان يوما من رجال القضاء الواقف كما يقولون ـ المحاماة ـ وكمواطن من ابناء هذا الشعب الذى قاسى ماقاسى عند غياب القانون ، امتلات عيناى بالدموع فرحا وغبطة وانا استمع الى رئيس جمهورية مصر العربية وقائدها يقول فى مستهل خطابه « انه لشرف كبير لرئيس الجمهورية ان يكون رئيسا لمجلس القضاء » وكم كان الرئيس السادات موفقا الى ابعد حدود التوفيق وهو يخاطب رجال القضاء معبرا اصدق تعبير عن ضمير مصر ووجدانها اذ يقول : انتم الحراس على سيادة القانون .. انتم المسئولون عن تطبيق سيادة القانون انتم المسئولون على ان يتمتع كل انسان على ارض هذا البلد الطيب بالطمانينة بعد الخوف وبالحب بعد الحقد ، انتم المسئولون ان تضعوا الحدود لكى يعرف كل انسان ماله وما عليه ولكى تعيش أسرتنا المصرية كما اراد الله سبحانه وتعالى ان تعيش حياة شريفة قوية فيها اصالة هذا الشعب ، وفيها ايمان هذا الشعب . ويقول الرئيس السادات وهو يخاطب ايضا رجال القضاء : انتم المسئولون ودوركم خطير فى هذه المرحلة التى نقيم فيها البناء حتى تضعوا التقاليد لاجيالنا المقبلة ، فيظل مجتمعنا مجتمع الامن والاخوة ، المجتمع الذى يعرف كل انسان فيه انه لا سيادة الا للقانون على الكبير والصغير على السواء ..

انتم ضمير هذا الشعب فى مجموعه ، لستم لهيئة ، ولا لحزب ولا لطبقة .. انتم ضمير الشعب فى كل مراحل كفاحه فى آماله وفى آلامه ، لا سلطان الا لضميركم وضميركم مستمد من ضمير هذا الشعب »

ويقول الرئيس السادات : وقت ان كان المستعمر قائما بسيفه وصولجانه وقت ان كانت الاحزاب تتلون كل يوم وسط كل هذا احتفظ القضاء بارتفاعه الى مستوى مصر ، هذا البلد الطيب الاصيل احتفظ قضاؤنا بكل هذه الصفات » .

ويشيد الرئيس السادات بقولة الحق والعدل والحرية التى قالها القضاء المصرى ممثلا فى محكمة الجنايات التى وقف الرئيس السادات امامها متهما فى قضية الاغتيالات السياسية ، يشيد بعدالة المستشارين عبد اللطيف محمد يرحمه الله ومحمد صادق فهمى وابراهيم خليل ـ اطال الله حياتهما . وبانور حبيب ممثل النيابة فى تلك القضية ثم يقول اننى اسعد الناس برجال الاسرة القضائية الذين انا مدين لهم وسأظل مدينا لهم بانتقالى من هذا المكان « قفص الاتهام » الى هذا المكان « المنصة التى كان يجلس عليها الرئيس السادات » والذى لاشك فيه ان قضية الاغتيالات السياسية التى اتهم فيها الرئيس السادات تعتبر من اخطر القضايا التى شهدتها محاكم مصر ، وكان عدد المتهمين فى تلك القضية ـ كما هو معروف ـ ٢٦ شابا من خيرة شباب مصر ، وكان عدد المحامين الذين ترافعوا فى تلك القضية ٣٥ محاميا استمرت مرافعاتهم ٤٧ جلسة . وقد زادت صفحات محاضر التحقيق فى تلك القضية على ١٥٠٠ صفحة وقد استدعى للشهادة فى تلك القضية كثير من زعماء مصر فى مقدمتهم مصطفى النحاس ومكرم عبيد ومحمد زكى على وعلى ماهر وحافظ رمضان وحسين سرى ومحمد حسنين هيكل .. وقد حفلت القضية بكثير من المفاجآت من بينها مرافعة الاستاذ حسين انور حبيب ممثل الاتهام الذى بدا مرافعته بقوله : سنظل نلعن الانجليز ابد الدهر ،

مادامو محتلين بلادنا ولو كانوا فى اجدب بقعة منها ، ويخيل الى ان كل باب يغلق كانما يصـــفق فى وجوههم وان كل حجر بارض الوادى ود لو طار فحصبهم فى جباههم وان كل كلب ينبح الما يصرخ فى وجوههم اخرجوا ، اخرجوا من هذا البلد .. الجلاء ووحدة وادى النيل شعورنا وشعارنا بل هو ترديد لوجيب قلوبنا ونبضات دمنا وهمسات ارواحنا شيبا وشـبابا ، رجالا ونســـاء

وعندما جاء النائب العام محمود منصور ليقول ان تلك العبارات لاتعبر بحال عن رأى النيـــابة هاج المتهمون وفى مقدمتهم انور السادات الذى وجه كلامه الى النائب العام قائلا ـ كما جاء فى محضر الجلسة ـ ايه ده ياسعادة النائب ازاى تقول الكلام ده انور بك لم يرتجل ده كان بيقرا فى ورقة .. مش كلام ، ازاى النائب العام المصرى الوطنى عايز يسحب الكلام ده ، انك مصرى والجميع على راسهم رئيس الحكومة يرددون امانى المصريين وهى وحدة وادى النيل والجلاء التام والنقـــــراشى قال فى مجلس الامن ان الانجليز لصوص وقراصنة فتاتى انت لتسحب هذا الكلام ، يجب عليك ان تستقيل وتنزل عن الكرسى . وقال انور الســادات « انا افضل ان اشنق الف مرة على ان ارى النائب العام يتراجع ويقف هذا الموقف غير المشرف : وفى رايى ان تلك القضية بحاجة الى دراسة جديدة باعتبارها قضية شباب مصر فى تلك المرحلة الهامة من مراحل تطورنا

صبرى ابو المجد